رسالة إلى عبدالعزيز الرفاعي

بقلم: د. محمد مريسي الحارثي
السعودية

وأنت بمشيئة الله تُحبر في جنة نعيم عليك سلام الله أيها السابق الجليل. وأعلم أن آخر رسالة كتبتها بقلمك المبجل وأنت على سرير المعافاة في أسبانيا في يوم السادس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ١٤١٣هـ المهورة بتوقيع المخلص عبدالعزيز في أربع صفحات وهي آخر ما كتبه يراعك الموقر. مازلت أحتفظ بها بين أوراقي الخاصة.

يا سيدي إلى هذه اللحظة التاريخية التي أكتب إلى روحكم الطاهرة برسالتي هذه في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة ١٤٢٦هـ، أي بعد ثلاثة عشر عاماً من تاريخ رسالتك إلينا لم أنشر رسالتك هذه فهي نسخة الكاتب بخط يده. ولعلني بهذه المناسبة أستأذن روحكم الفاضلة في نسخها خشية اندراس حرفها مع تقادم الزمن.

لم تنس أيها الأستاذ الكريم وأنت في معاناة عافيتك أن تحمل في رحلة استطبابك كتابنا (عبدالعزيز الرفاعي أديباً) في نسخته المخطوطة فقلت في مطلع رسالتك: «فقد حملت في رحلتي العلاجية إلى بوسطن ثم إلى منتجعي في الأندلس كتابكم عني، ولقد كنت لأول وهلة لم أكتمكم دهشتي لأن تبلغ بكم حفاوتكم بآثاري هذا المدى البعيد الذي تجسد في كتاب لم أكن أتوقع أن يبلغ هذا الحجم، وأحسب أن دهشتي طفرت على ملامحي فيما حسبته أول لقاء لولا ما ذكرتموني من ذلك اللقاء الأول في لكنو بالهند في رحاب العلامة السيد أبي الحسن الندوي».

وبعد عبارات المجاملة اللطيفة التي منحتني إياها، والثناء العطر الذي منحته مادة الكتاب، ومنهج التناول وتحري الأمانة، والمصداقية فيما يتوخاه الباحث من توثيق العلاقة بين مقدماته، ونتائجه فيما بعد من دراسات لحظت بعض الملحوظات الشكلية - كما سميتها أنت - قمت بتدقيقها، والنظر في أهمية الجوهر منها مما له علاقة بتحرير وتصويب بعض المعلومات التاريخية. وذلك قبل نشر الكتاب بنادي جدة الأدبي الثقافي، وكان إعداد هذا الكتاب متزامناً مع مناسبة تكريم النادي للأستاذ الرفاعي الذي أسهم بجهد موفور في المشهد الثقافي الإبداعي في المملكة العربية السعودية في فترة تزيد على نصف قرن من الزمان.

وقد وضعت جهود الرفاعي في الإبداع الثقافي تحت مجهر الدرس، فقد أصدر الرفاعي سبعة عشر إصداراً، وأعد مجموعة من المحاضرات الأدبية. وقد أشرت في الصفحة الحادية والثلاثين إلى أن له كتاباً تحت الطبع اسمه «ابن سيرين» ونبهني رحمه الله في رسالته إلى أن هذا الكتاب قد وضع

له مخططاً لإعداده، ولم يكتبه.

ولم تحظ جهود الرفاعي التأليفية والإبداعية باهتمام الدارسين المحققين. وهناك إشارات سريعة ألمحت إلى بعض جهوده، لكنها كانت تتسم بالقلة والاضطراب في الرؤية.

والأمر الآخر الذي دفعني إلى الكتابة عن إبداع الرفاعي الثقافي هو ذلك التوافق بين رؤية الرفاعي الأدبية ومشروع النقد المنتمي الذي تمحورت حوله دراساتي النقدية. وقد حاورت تأليف الرفاعي وإبداعه، واستنطقتها من خلال عرض مادتها حسب أولية التأليف ما أمكن، لأن ذلك يساعد على تتبع المراحل التأليفية وما صاحبها من نمو وصقل في طبيعة جهود الرفاعي الأدبية.

إن حركة التأليف والإبداع في المملكة العربية السعودية لم تزل تتطلع إلى مزيد من الدراسة والتقويم والتعليق والتحاور لإبراز فلسفة هذا المنجز ورؤى مبدعيه، ووضع ذلك في المكان الصحيح من حركة الثقافة الإبداعية العربية.

إن رسم الخريطة الثقافية في المملكة العربية السعودية رسماً حقيقياً بكل أبعادها وظلالها ومستوياتها وقيمها المعرفية ومقوماتها الشكلية سيكشف الملامح الصحيحة للهوية ومتعلقاتها الداخلية وعلاقتها بالآخر.

وقد كشفت دراستنا عن عبدالعزيز الرفاعي شيئاً من ملامح الأدب في المملكة العربية السعودية ومشتركاته مع الرؤية الأدبية العربية.

إن مركز الحجاز في الدولة السعودية الذي كان مهاداً ثقافياً للرفاعي وجيله كان أكثر مراكز الدولة تأثيراً قبل توحيدها وبعد توحيدها كذلك نظراً لفاعلية الحرم المكي، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في استقطاب المجاورين من العلماء المسلمين واهتمام طلاب العلم بثقافة المسجد، وما صاحب ذلك في هذه اللحظة التاريخية من العناية بالتعليم المنظم وظهور الصحافة وتأسيس المكتبات واستقدام المطابع كل هذا كان من الأسس التي أسهمت في نمو الحركة الثقافية في هذا القطر من المملكة.

لقد نشأ الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في هذا الجو الثقافي، درس على نظام التعليم المنظم، وتخرج في المعهد العلمي السعودي وتردد على مكتبات مكة المكرمة التجارية والخاصة، وبعض حلقات الدروس في المسجد الحرام، وعمل معلماً في المعهد العلمي، وفي مدرسة العزيزية الابتدائية بالشامية. وكتب العديد من البرامج الإذاعية، ثم أسس دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، وأصدر مجلة عالم الكتب وأنشأ صالوناً أدبياً بمدينة الرياض.

إن هذه العلاقة الرفاعية بالمشهد الثقافي المحلي متعلماً ومعلماً، قارئاً ومؤلفاً، كاتباً وشاعراً.. لم يكن ليحوز السبق في هذا كله لولا أنه قد صرف همه للثقافة وشكلته الثقافة، وفق ما يشتهيه منها، وما ينتجه كذلك.

هل تصدق على الرفاعي مقولة «الأديب من أخذ من كل علم بطرف» أحسبه كذلك. فقد ألف في تاريخ الحضارة الإسلامية من وجهة النظر التاريخية والإبداعية والاجتماعية، فقد رصد رحلاته مع المكتبات ومع التأليف، ومع الإبداع الشعري إذ أصدر ديواناً واحداً سماه (ظلال ولا أغصان)، وقد تأخر في إصدار هذا الديوان الذي صدر في طبعته الأولى عام ١٤١٣هـ، ضم إحدى وعشرين قصيدة وأربع مقطوعات. إضافة إلى قصيدتين ومقطوعتين ليست من إبداع الرفاعي. وهذه القصائد الرفاعية هي ما اختاره الشاعر من إبداعه الشعري منذ الستينيات الهجرية حتى تاريخ صدور الديوان.

إن أول إشكالية تواجهك في قراءة هذا الديوان هي العنوان المغرق في الرومانسية فقد امتزج الحسي بالمعنوي في مسارب البحث عن مصدر الظلال التي لا تنتمي إلى محسوس وكأن رحلة الظلال هنا هي رحلة التهويم خارج حركة النفس الفطرية. عندما أصبحت الظلال بلا أغصان وبلا محسوس فتحولت إلى غاية من غايات النفس المبدعة في نظر الرفاعي.

وتبدو رحلة الرفاعي في ظلال ولا أغصان رحلة إلى المجهول بل قل إلى اللاشيء. فالظلال التي كانت مقصد الرحلة في حكم العدم،

وعدمها مبني على انعدام السبب «الأغصان» إذ نفي السبب نفي للمسبب.

وقد أسقط من ديوانه الشعر الذي كان يمثل مرحلة الصبا ونضارة الشباب، وهو بهذا الصنيع قد أسدل الستار على مرحلة مهمة من مراحل رؤيته الشعرية لعلنا نصل في مستقبل الأيام إلى ما تسرب منها إلى صفحات الصحف، وأيدي الأصدقاء والمريدين للوصول إلى تقديم الرؤية الشعرية الرفاعية في صورة قريبة من الكمال إن لم تكن كاملة.

إن تعقّل الرفاعي في شعره قد وجهه إلى شيء من التأمل في وقع الحياة السريع على نفسه، وهذا ما لم ينسجم مع حركة التأني وطول الرؤية، فتقاطعت في بعض شعره بعض صور الألم والتشاؤم بالأمل والتفاؤل. كما في قصيدته (دعاء).

سألت القلب عن دنياه ... ما دنياك يا قلبي؟
فهذي ضجة الحرمان ... تلذع نارها جنبي
وهذا موكب السعداء ... يزحم ركبه ركبي
لَكَمْ أزرع آمالي ... فما أجني سوى جدبي
لقد أشفق محروم ... بأن يلقاك يا ربي
فتبدو لهفة الحرمان ... في جناتك الغلب
فهيئه إلى نعماك ... وامسح لهفة السغب

لقد كان الرفاعي من الشعراء المقلين، ومن الكتاب ذوي النزعة المتزنة في كتاباتهم لا يقسو في مناقشة محاوريه عندما يلحظ شيئاً من أخطائهم وأغاليطهم، ويبتعد دائماً عن أجواء الحساسيات العلمية التي تنشأ عادة بين بعض الأدباء نتيجة الاختلاف في وجهات النظر حول قضايا الفكر والأدب.

وقد كان التراث العربي الإسلامي يمثل الهاجس الأساس الذي استأثر بجهود الرفاعي التأليفية. فقد قدم للمكتبة العربية ثلاثة عشر إصداراً استمد مادتها من معين التراث العربي.

وقد كشفت تآليفه التراثية عن سعة اطلاع، وثبوت قدم على أرضية التراث، ويتسم منهجه الكتابي بحسن التخطيط، ودقة التنفيذ في الإعداد، وتوثيق المادة العلمية من مصادرها ومراجعها توثيقاً علمياً دقيقاً ■

جهاد بالقلم

د. محمد عبده يماني

لقد حرص عبدالعزيز الرفاعي - رحمه الله - على أن يجاهد بقلمه ليثري الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية حتى أصبح علما من أعلام هذه البلاد، وعلى الصعيد العربي أيضاً من خلال المؤتمرات الأدبية حيث تتسم أبحاثه بالدقة والعناية ، وحرص على تتبع قضايا وزوايا مهمة وجديدة في السيرة النبوية العطرة ، وفي تراثنا الأدبي بصورة عامة .

غياب .. وغياب

د. محمود محمد سفر

عندما قال أحد الفلاسفة: إن وفاة بعض الناس تجعلك تعيش في حزن دائم... كان صادقا ولم يجانبه الصواب، فغياب بعض الرجال بالموت من الذين انحفرت ذكراهم في وجدان معارفهم واستقرت محبتهم في أفئدتهم يظل غيابا محسوسا ويبقى انقطاع الصلة بهم بحكم نفاذ قضاء الله فيهم بوفاتهم محزنا وملموسا .. ولا أجد إنسانا منا في عصرنا الحاضر يمكن أن ينطبق عليه هذا القول مثل أستاذنا عبدالعزيز الرفاعي.